

التدوين التاريخي الأوربي خلال القرن الثامن عشر

د. المدني سعيد عمر
جامعة ليبيا

المقدمة:

كان التدوين التاريخي قبل القرن الثامن عشر يهتم بالأدب والتأملات والأساطير ومدائح الملوك، والاهتمام بالغيبيات والقوى الخارقة للطبيعة. وخلال القرن الثامن عشر أو ما يسمى بعصر التنوير أخذ التاريخ شكله العلمي في قواعد وأصول فنية علمية راسخة ولم تعد الأفكار التي سيطرت على فكر المؤرخ التقليدي وهي اهتمامه بشؤون السياسة وأحداثها بل أصبح التاريخ علما عمليا موضوعيا.

فقد كرس المؤرخون جهودهم لبحث موضوعات تاريخية مهمة وشهد هذا القرن ظهور فلاسفة ومؤرخين مشهورين أمثال: فيكو، وفولتير، وجييون، وهيوم، ومونتيسكيو، وروسو وآدم سميث، وكوندراسيه وغيرهم ممن عالج البحث فلسفتهم ونظرتهم للتاريخ.

لقد أسهم فلاسفة عصر التنوير بأفكار جديدة في الدراسات التاريخية من خلال تقديمهم للنصوص مما خلص التاريخ من الكثير من الأخطاء وهم أول من وسع أفق الإنسان الأوربي وغيره في نظرتهم للتاريخ حي غدت نظرة المؤرخ خلال عصر التنوير أكثر تحررا وأبعد عن التعصب الديني والقومي، وتوصلوا إلى أن التاريخ الحق هو تاريخ الفكر الذي يكشف عنه تقدم العقل البشري.

يعالج البحث إشكاليات التدوين التاريخي قبل عصر التنوير مع التركيز على ما شهدته القرن الثامن عشر من تنوع في آفاق المعرفة التاريخية وتنوع فروع التاريخ وتطور طرائق البحث التاريخية حتى أطلق على القرن الثامن عشر بعصر صناعة التاريخ.

تميز القرن الثامن عشر بكونه عصر التنوير Enlightenment أو الاحتكام إلى العقل، إذ ظهر فيه فلاسفة ومفكرون عظام في مختلف فروع المعرفة، أما التاريخ فقد أخذ يستقر شيئا فشيئا على قواعد وأصول فنية علمية خرجت به من مجال الأدب والفلسفة والتأملات وأساطير القديسين، ومدائح الملوك إلى أرض العلم الصلبة.

وكان الاهتمام بالتاريخ في هذا القرن مظهرًا من مظاهر الاهتمام بالإنسان، لا بمجرد الإنسان الماضي، بل لأن دراسة الماضي تزيدنا خبرة وتجربة بالحاضر، فضلا عما في دراسة التاريخ من إشباع للنزعة العقلية في إصدار أحكام متحررة عن آراء الكنيسة ورجال السياسة⁽¹⁾. أخذ المؤرخون ينتقدون القاعدة اللاهوتية التي قامت عليها مناهج الكتابة التاريخية في العصور الوسطى.

زادت موجة الحماس لدراسة التاريخ إذ كرس طلاب المعرفة، في إيطاليا وألمانيا وفرنسا وإنجلترا، حياتهم لبحث موضوعات تاريخية متنوعة، وحاولوا معالجتها بشكل يختلف عما عهد من قبل أثناء عصور الانقسامات الدينية والدستورية في أوروبا.

ويعد فيكو، وفولتير، وجيبون أبرز الأمثلة لمدرسة الاستنارة في التاريخ، ورواد تلك الحركة. نشر جامبا تيسستا فيكو² Giambathista Vico سنة 1725، رسالة جامعية شاملة، بعنوان "أصول علم جديد"، عد فيها التاريخ "فرعاً من علم واسع شامل لشؤون المجتمع الإنساني"، كما اقترح مبادئ جديدة لتكون أساساً للبحث التاريخي، وهو أول من حاول "نقل التاريخ من ميدان الحرب إلى قاعات الدرس"³، وحاول تطبيق المنهج العلمي على دراسة التاريخ، فقد قسم التاريخ إلى ثلاث حقبة أو أدوار.

الأولى: إلهية، أي العصر الذي كان الناس يردون الحوادث إلى صنع الآلهة.

الثانية: بطولية، وكان التاريخ فيها سرداً لأعمال، وعظماء الرجال.

والثالثة: إنسانية، وهي التي تنبه فيه المرخون إلى أن التاريخ الحقيقي هو الذي تصنعه الجماهير والشعوب⁴. وعلى الرغم من بساطة هذا التقسيم فإن فيكو يعد - في نظر كثير من الباحثين - أول من أرسى قواعد فلسفة التاريخ في العصر الحديث⁵.

وعن فائدة كتاب فيكو على فلسفة التاريخ يجدر بنا أن ننقل هنا نصاً ما نعتبه به هرنشو، حيث قال "حسبنا أن نقول إنه يعتبر في مقدمة ما كتب في هذا الموضوع في القرن الثامن عشر"⁶.

واشتهر الفيلسوف فرانسوا ماري دي فولتير⁷ 1694 - 1778، بكونه مؤسس "المدرسة التاريخية العقلانية" لإيمانه العميق بالعلم والعقل، ويعزى إليه فضل النقل النوعية في مناهج البحث التاريخي لأمر الذي دفع الكثير من المؤرخين أن يعدوه "مؤسس علم التاريخ" بمفهومه الحالي في الغرب، وهو صاحب أكبر إنتاج أدبي في تاريخ الإنسانية فقد بلغ عدد مقالاته ورسائله وحدها عشرة آلاف.

وعندما نشر فولتير كتابه الأول عن حياة الملك "شارل الثاني عشر"⁸، Historie De Charles X11، وحروبه مع الروس سنة 1731، رأى فيه الناس لونا جديداً من التاريخ لم يعرفوه من قبل، فقد عرف كيف يتأني في الحكم، ويحسن المقارنة بين شارل الشاب الغامر، ومنافسه القيصر الروسي بطرس الأكبر⁹، إذ رأى في الأول "شاباً متهوراً" في حين وصف بطرس الأكبر بأنه "رجل مصلح أنشأ إمبراطورية واسعة، رغم قسوته وعنفه"¹⁰.

أما أهم مؤلفات فولتير، من حيث تطورها التاريخي فكتابه "عصر لويس الرابع عشر"¹¹ Le Siecle De Louis XIV سنة 1751، الذي وصف بأنه "أول مؤلف تاريخي بالمعنى الحديث"، فقد تخلى فولتير فيه تماماً عن النظام الحولي، والتتابع الزمني للأحداث، ونظم كتابه على أساس ترتيب الموضوعات، وأبدى فيه

براعة فائقة في تحليل الأحداث والأشخاص، وهي المرة الأولى التي يتناول فيها كتاب تاريخي حضارة أوربية تناولاً شاملاً¹². مما حدا بلويس الرابع عشر أن يخلع على فولتير لقب "مؤرخ فرنسا الرسمي"¹³.

أراد فولتير أن يؤرخ للعالم إلا أنه لم يستطع السير في عمل ضخم كهذا، واقتصر جهده عام 1756، على تحرير كتيب بعنوان "مقال عن الاختلاف والعبادات" الذي يعد أول مؤلف في التاريخ العالمي بالمعنى الحقيقي للمصطلح، وكانت هذه أول مرة تم فيها الاعتراف بفضل الحضارات الشرقية، والحضارة العربية الإسلامية على الحضارة الأوربية، ونبه فولتير إلى "أن الأمور الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، تدخل في صميم عمل المؤرخ شأن أخبار البابوات والملوك"¹⁴.

اهتم فولتير بالتاريخ للحضارات بدل "الملوك والقادة" لأن أخبار السياسة والحرب، حسب رأيه، "لا تفصح عن العقل الإنساني خلال تلك العصور" يقول فولتير في هذا الصدد ما نصه :

"إن بعض المرخين يهتم بالحروب والمعاهدات، ولكني بعد قراءة وصف ما بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف معركة، وبضع مئات من المعاهدات لم أجد نفسي أكثر حكمة مما كنت قبلها، حيث لم أعرف إلا على مجرد حوادث لا تستحق عناء المعرفة، وأي حكمة تكتسب من العلم بسيادة طاغية على شعب بربري لا هم له إلا أن يغزو ويدمر"¹⁵.

كما أنه وسع دائرة التاريخ فلا تكون وقفاً على تاريخ أوروبا فقط، وإن أزهى أصول التاريخ الأوربي، في رأيه، تمثل في فترات أربعة : التاريخ اليوناني القديم، ثم الدول الرومانية إبان ازدهار حضارتها، ثم عصر النهضة، وأخيراً عصر التنوير، وهو "أكثر استنارة"¹⁶.

ويرجع الفضل إلى فولتير في أنه أول من استخدم مصطلح "فلسفة التاريخ"¹⁷ وقصد به رفض التاريخ المليء بالخرافات، وكتابة الحوليات وتنقيح التاريخ من المبالغات، وتخليصه من الأساطير لذا نجده يرفض الأخذ بفكرة "العناية الإلهية" التي دارت حولها تفسيرات التاريخ في العصور الوسطى من البحث في طبيعة المسيح عليه السلام، وشخصه، وما إلى ذلك¹⁸.

وعلى الرغم من أن الكثير من المؤرخين يعدون فولتير مؤسس "العلم التاريخي" إلا أن الدكتور حسين مؤنس، عده من "هواة التاريخ وليس مؤرخاً" لأنه كتب التاريخ على أنه لون من الأدب والفلسفة، وهو يمثل القمّة التي وصل إليها لون من ألوان الفكر الغربي الذي نشأ في عصر النهضة وجمع أصحابه في مؤلفاتهم أطرافاً من الفلسفة وأخرى من التاريخ وأضافوا إلى ذلك أيضاً من التأمّلات والآراء الصائبة وغير الصائبة¹⁹.

ومهما يكمن من أمر فقد بدأ الاهتمام بالتاريخ الاجتماعي بعد ظهور فولتير حتى بلغ ذروته أوائل القرن الماضي، وغداً هدف المؤرخ يتجه نحو دراسة المجتمعات التاريخية، وبيان تطورها التاريخي والعوامل التي أثرت فيه.

لقد أثر فولتير بنزعتة العقلية في المؤلفات التاريخية التي كتبها ديفد هيوم David Hume²⁰ الذي صرف جزءاً كبيراً من وقته في تأليف تاريخ إنجلترا في ستة مجلدات²¹. عد هيوم التاريخ سجلاً لأفكار البشر من الناحيتين الثقافية والأخلاقية، لكنه أثر في الوقت نفسه أن يكتب تاريخاً سياسياً، لذا سارت كتاباته على نهج ثابت يستهدف إبراز الحقيقة الخاصة بأن الأفكار والدين هي التي تشكل السياسة²²، وكتن عداؤه للأساطير والخرافات وتزمت المسيحية مبعث عدم تقديره للعصور الوسطى التي اعتبرها "ألف سنة من الركود والفرغ الثقلي أو منخفض هائل في الخط البياني للتقدم البشري"²³.

أما شارل دي مونتسكيو²⁴ Montesquien المؤرخ الاجتماعي الفرنسي، فقد أطلق عليه البعض اسم "مؤسس فلسفة التاريخ"، كما سماه آخرون "رائد المنهج العلمي في التاريخ" و"رائد فلسفة الحضارة في العصر الحديث"²⁵.

وجد مونتسكيو في دراسة التاريخ خير سند له في دراساته الأخلاقية، والقانونية، والاقتصادية فوجد أنه لكي يدرس الظواهر الاجتماعية دراسة علمية صحيحة لا بد أن "يلجأ لتاريخ الأمم والمجتمعات فيدرس فيها هذه الظواهر وتطورها أو العلل التي تخضع لها"²⁶، وقد طبق الكثير من تلك الآراء، وألف جملة كتب تاريخية لعل أشهرها كتابه المعنون "عظمة الرومان وانحلالهم" وكتاب "روح القوانين" سنة 1748²⁷. عرض فيه "نظرية المناخات" التي ربط فيها بين البيئة الجغرافية، وطبيعة البشر التشريعية والقانونية، فأوضح إن التربة والمناخ والطبوغرافيا والانثروبولوجيا في الشعوب المختلفة هي الظروف الأساسية التي ترعرعت فيها شرائعهم وأنظمتهم²⁸.

ويحدد مونتسكيو العوامل التي تشكل قوانين الدولة، وشكل الحكومة، وشخصية الأمة، فيردها إلى عوامل مادية طبيعية، أو معنوية اجتماعية. أما العوامل الطبيعية فهي عوامل جغرافية أي أن الناس في مختلف الأقاليم يختلفون تبعاً لعوامل المناخ، وطبيعة الأرض والموقع، ذلك أن للمناخ أثراً على كل أجزاء الجسم الإنساني، ومن ثم يتشكل مزاجه، وأخلاقه وعاداته، وطباعه، فحيوية الناس . حسب رأيه . في المناطق الباردة غيرها في المناطق الحارة²⁹. فالمناخ البارد بنظره ينتج أناساً يتميزون بالقوة والشجاعة، وهذا ما أتاح لهم الحفاظ على حريرتهم، في حين أن المناخ الحار يولد أناساً ضعافاً بالنسبة للسلوك³⁰.

كما يختلف مفهوم الحرية والأنظمة الاقتصادية كالضرائب، وأنظمة الحرب في هذه المجتمعات وفقاً لشكل الحكم فيها، وهذا بدوره قد شكلته العوامل الجغرافية، فحالة القحط أدت بالتتار إلى كثرة الحروب، والتعطش للدماء والتدمير، بينما تميل القبائل العربية إلى الحرية، وإن عانت من القحط أيضاً³¹.

أما العوامل المعنوية أو الاجتماعية التي تشكل بدورها نظام الحكم وقوانين الدولة فأهمها العوامل الاقتصادية وأمور الدين، أما المسائل الاقتصادية فيعرض مونتسكيو لأنظمة التجارة والضرائب في المجتمعات القديمة، وعوامل تطورها، وأثر القوانين الوضعية في حركة التجارة، وانعكاس ذلك على عدد السكان وحركتهم ونموهم³². أما بالنسبة للدين فيرى مونتسكيو، الإسلام أكثر ملائمة لشعوب الشرق، بينما المسيحية تناسب الأوروبيين لأسباب جغرافية من جهة، ومتعلقة بشكل الحكومة من جهة أخرى³³.

لقد درس مونتسكيو بإسهاب مستخدماً المنهج التاريخي، والمنهج المقارن واستطاع أن يحدد نظام الحكم بالعوامل الجغرافية أو المادية والاجتماعية أو الثقافية، وقد أولى العوامل الجغرافية اهتماماً خاصاً، وبين أثرها في شكل المجتمع، كما أشار إلى أن العوامل الجغرافية إن سادت تأثيرها على العوامل الثقافية والاجتماعية فإن هذا يعني " جمود المجتمع وضعف قدرته على التطور نظراً لثبات العامل الجغرافي إذا قيس بالعامل الثقلي"³⁴.

وبطبيعة الحال لا يمكن إنكار الصلة القائمة بين الحضارة والظروف الطبيعية كالمناخ، والأحوال الجغرافية الأخرى إلا أن الذي يحدد شخصية تلك الحضارة هو الإنسان القادر على تحدي الظروف الطبيعية والمناخية.

وقد تعرضت "نظرية المناخات" لدى مونتسكيو لانتقادات عديدة فقد أشار فولغين، إلى أن نظرية مونتسكيو "تجهل كل شيء عن الصيرورة" التي تفضي إلى "حلول وأشكال اجتماعية عليا مكان أشكال دنيا"⁽³⁵⁾، وكان ينقص مونتسكيو التعمق في تاريخ الكثير من الشعوب، فاقترنت شواهد على الثقافة الأوربية وقتذاك.

وينتمي جان جاك روسو³⁶ J.J. Russo 1712 - 1779 إلى عصر الاستنارة، فكان يرى أن الإنسان يولد بطبعه حراً، وأن التنظيم الاجتماعي قد وضع الأغلال بين يديه، وقد سلم روسو " بالتفاوت الاجتماعي " بين البشر، ولكن هذا التفاوت غير بالغ الضخامة³⁷.

يعد "العقد الاجتماعي أهم مؤلفاته وأكثرها شهرة. أطلق عليه مؤرخو الفلسفة اسم "إنجيل الثورة الفرنسية" و"دستور الثورة" لما تضمنه من آراء سياسية ساعدت على انفجار مراحل الثورة الفرنسية التي كانت تغلي في قلوب الفرنسيين³⁸.

وروسو من المفكرين الذين أكدوا على أهمية أثر البيئة في تطور البشر الاجتماعي ثم الحضاري بصورة عامة، فأشار إلى أنه عرضت للإنسان في بادئ الأمر عوائق طبيعة كالجذب والبرد والقيظ وغيرها، وقد اضطره ذلك إلى التعاون مع غيره من أبناء جنسه مؤقتاً بغية ممارسة الصيد، وتربية الحيوان لتوفير القوت. ثم ظهرت إلى السطح واضحة مطامح الإنسان المختلفة لاسيما نزعاته المتمثلة بالتنافس والخصومة³⁹.

ويعد المؤرخون النصف الثاني من القرن الثامن عشر بداية الانقلاب الصناعي في أوروبا أو ما عرف بالثورة الصناعية، وبدأ هذا الانقلاب يؤثر في المسلكية الإنتاجية وفي الحياة والبيئة الاجتماعية فعندما بدأت الآلة تحل محل الأيدي العاملة انتشرت البطالة، وازدادت حالة البؤس والفقر، وأخذت الثروات من الناتج الصناعي تتجمع لدى شريحة ضيقة من المجتمع، ومن هنا تنبه علماء التاريخ والاجتماع إلى أهمية العوامل الاقتصادية في سير التاريخ، فظهر علماء ومؤرخون اهتموا بالتعليل الاقتصادي خلال القرن الثامن عشر.

ولا يمكن أن نترك مؤرخي عصر الاستنارة، دون الإشارة إلى آدم سميث⁴⁰ Adam Smith، مؤسس علم الاقتصاد ومؤلفه الشهير عن "ثروة الأمم" سنة 1776، وهو كتاب "تاريخ في صميمه وفي طريقته"، وفيه لفت سميث الأنظار إلى

"أهمية العوامل الاقتصادية في سير التاريخ"⁴¹. وهي من أهم العوامل وأولها بالاهتمام ويكفي أن نذكر أن جيبون⁴²، في بحثه الطويل عن أسباب سقوط روما لم ينتبه للعامل الاقتصادي، إنما تنبه إليه المؤرخون بعد أن كشف آدم سميث عن أهمية العامل الاقتصادي في بناء الدول والجماعات، وقد أفاض كارل ماركس⁴³ Karl Marx بعد ذلك في هذه الناحية لكن سميث يعد صاحب الفضل الأول في استلفات أنظار الناس لأهمية العامل الاقتصادي⁴⁴.

ووسط ذلك الحماس للتاريخ والاهتمام بجعله علماً محترماً ظهر ثالث كبار عصر الاستنارة، إدوارد جيبون⁴⁵ 1737 - 1794، الذي يعد من أعظم المؤرخين وأساتذة علم التاريخ على مر العصور، أصدر بين عامي 1776 - 1788 كتابه الشهير "تاريخ اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها"⁴⁶ ويقع في ستة مجلدات، فحظي على الفور بالثناء والانتشار، ورغم أن الكتاب حافل بوجوه النقص، لكنه عمل علمي رائع متبه صاحبه عن إيمان عميق بأهمية ما يعمل، وأنفق في كتابته معظم سنوات عمره تقريبا.

اختلفت الآراء حول جيبون اختلافاً كبيراً فالبعض عده "أعظم المؤرخين الإنجليز" الأمر الذي حدا بالمؤرخ Bury إلى القول "إنك لن تكون مؤرخاً حتى تقرأ جيبون"⁴⁷. وجاراه في ذلك الناقد هنري جونسون، إذ وصف كتابه بأنه "أعظم التواريخ"⁴⁸.

كان جيبون بليغاً فخم العبارة، نجح في أن يضع قارئه في العصر الذي يتحدث عنه، حتى إنك لتسمع وأنت تقرأ، وصف خروج جيش قيصر من روما للحرب، وقعقة العجلات، وصليل السيوف، وصهيل الخيل⁴⁹، وأسلوبه مؤثر يدخل البهجة على نفس قارئه، فضلاً عن أن عمله يتميز بالدقة المتناهية⁵⁰.

وقارن بارنز بين جيبون وفولتير بما نصه :

"ومع أن جيبون كان أقل ابتكاراً وتأثيراً من فولتير على مجرى الكتابة التاريخية في العصور التالية إلا أن شهرته بين جماهير المثقفين غير المؤرخين المحترفين. فاقت شهرة فولتير، ويرجع ذلك إلى أن موضوع بحثه الخاص بانهيار الحضارة الرومانية كان مقصوداً به أن يأخذ بألباب الجماهير، ولهذا فإن كتابته عن هذا الموضوع أخذت شكل الملاحم. ثم إن جيبون نظم عمله بطريقة فذة، وكان أسلوبه رقيقاً ومؤثراً، يدخل البهجة على نفس قارئه، فضلاً عن أن عمله يتميز بدقة متناهية، وهو أمر مدهش بالنسبة لعصر جيبون"⁵¹.

ولم يكتف بارنز بتلك المقارنة فحسب، بل وصف كتاب جيبون "اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها" بأنه "ظل مرجعاً يهتدي به، ومصدراً لا يرقى إليه الشك طوال قرن ونصف، ولم يكن كتاباً رائجاً مشهوراً فحسب بل وعملاً خالداً"⁵².

ويلاحظ منتقدو جييون أن كتابه لا يتميز "بفلسفة خاصة للتاريخ" بل إن الدقة والضبط، والاستفادة من المراجع تنقصه في أحيان كثيرة، كما سخط عليه الكثيرون لتحرر فكره وقلته إيمانه بالمسيحية⁵³. لكن هذا بالذات أعطى الرجل الفرصة ليفهم الديانات الأخرى، وبذلك يعد جييون من الأوربيين القلائل الذين قدروا الإسلام، ورأوا بعض جوانب عظمة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وهنا نجد جييون أوسع ذهنًا وأكثر تحررًا من فولتير الذي لم يستطع التخلص من أسر تعصبه الكاثوليكي.

ومهما يكن من أمر فقد ارتفع جييون بالتاريخ إلى مستوى لم يعرفه الغرب قبل ذلك، وكان أكثر الجميع استنارة، فقد عاش في صميم "عصر التنوير" وعاصر أعلامه أمثال، فولتير، ومونتيسكيو، وجان جاك روسو وغيرهم من أعلام العصر، ويحس الإنسان وهو يقرؤه أنه أكثر الجميع استنارة.

ويمثل ماري جان انطوان كوندرسيه⁵⁴ Mary 1743 - 1794 Jan.A.Condorect بمؤلفه الشهير "مسودة لوحة تاريخية لتقدم العقل البشري"، نموذج من المفكرين المعتنقين لنظرية التقدم معبراً في ذلك أيضاً عن عصر التنوير، ويتمثل تصوره للتاريخ الماضي من أجل الحاضر والمستقبل فيما قدمه من لوحته التاريخية⁵⁵. كشف فيه بأن الإنسانية تطورت خلال عصور التاريخ وفق تسع مراحل هي باختصار كالآتي:

المرحلة الأولى: حيث اجتمع الأفراد على هيئة عشيرة كان رؤساؤها يحددون التنظيم السياسي والأخلاقي، وتكونت لدى الإنسان مفاهيم بدائية عن الكون.

المرحلة الثانية: عصر الأقوام الرعاة، واستئناس الحيوان وظهور الحرف.

المرحلة الثالثة: عصر الزراعة واختراع الكتابة... وتكون النظام الإقطاعي ونشأة المدن.

المرحلة الرابعة: من التدوين التاريخي إلى تقسيم العلوم، وتمثل هذه المرحلة الخطوات الأولى في تقدم الفكر البشري، وتمثل تراث اليونان وازدهار العلوم والآداب والفنون⁵⁶.

المرحلة الخامسة: عصر تقدم العلوم وتبدأ بأرسطو⁵⁷، وعندما خضعت اليونان للدولة الرومانية أقام بعض العلماء بالإسكندرية بعيداً عن استبعاد روما، ثم ذابت الديانات في المسيحية، وصاحب انتشار المسيحية ضعف الإمبراطورية وتدهور العلوم والفلسفة اليونانية.

المرحلة السادسة: من انحطاط العلوم إلى بعثها، ثم وقعت الشعوب فريسة الاضطهاد الثلاثي "الملوك والقادة والكهنة"، وهنا أنصف كوندرسيه الإسلام ودور المسلمين في التقدم الحضاري الأوربي إذ قال بهذا الصدد ما نصه:

"أما في الشرق فقد حمل المسلمون تراث اليونان، وتقدمت بعض العلوم، وكان ذلك كافياً لتنبيه أوروبا من غفلتها، وإن لم يحل ذلك دون عودة المسلمين إلى غفوتهم"⁵⁸.

ولابد من الإشارة إلى أن لأرسطو أثراً في الفلاسفة المسلمين إذ لقبوه "المعلم الأول" في حين عد الفارابي "المعلم الثاني"⁵⁹، وشرحوا فلسفة أرسطو ثم أخذها منهم الغرب فساعدوا بذلك على نقل الفكر اليوناني إلى أوروبا، وحفظوه من الضياع.

المرحلة السابعة: من بعث العلوم حتى اختراع الطباعة، ويشير إلى أربعة أسباب نبهت الفكر الإنساني، وأيقظته من سباته وهي:

1. النضور من تسلط الكنيسة.
2. تحرر بعض المدن وسعي بعض الملوك إلى نيل تأييدها ضد النبلاء.
3. الحروب الصليبية التي رغم تعصبها، إلا أنها أسهمت بالاحتكاك بحضارة الشرق وعلومه.
4. نشأة الجامعات التي غدت مراكز الفكر.

المرحلة الثامنة: من اختراع الطباعة حتى طرح نير السلطات التقليدية، وأشار إلى أن هناك ثلاث وقائع كان لها أهميتها في هذه المرحلة وهي: اختراع آلة الطباعة، واحتلال الملمين القسطنطينية، واكتشاف العالم الجديد، وهناك علامات على بعث الفكر الحر وتجلي ذلك في الإصلاح الديني، وظهور أفكار حقوق الشعوب، وتقييد حرية الملك، وظهور المناهج الجديدة في العلوم⁶⁰.

المرحلة التاسعة: ظهور بيكون⁶¹، وجاليلو⁶²، وديكارت⁶³، وهم من كبار المفكرين الذين أثروا في النهضة العلمية الجديدة ومنها أساليب تدوين التاريخ⁶⁴.

لقد أسهم فلاسفة عصر التنوير بأفكار جديدة في الدراسات التاريخية فقد جعلتهم نظرتهم المتحررة رواد النقد التاريخي في العصر الحديث فقد وضعوا كل شيء موضع النقد والفحص الأمر الذي خلص التاريخ من كثير من الأخطاء، وهم أول من وسع أفق الأوربي في نظرتهم إلى التاريخ، وقد أصبحت نظرة المؤرخ أكثر تحرراً وأبعد عن التعصب الديني والقومي، وتوصلوا إلى إن التاريخ الحق هو تاريخ الفكر الذي يكشف عنه تقدم العقل البشري.

ورغم أن مؤرخي القرن الثامن عشر لفتوا أنظار الناس إلى أهمية دراسة التاريخ دراسة علمية وقيمتها الكبرى كدراسة إنسانية أصيلة⁶⁵، والأفكار الرائعة التي قدموها وأسهموا في إحداث ثورة شاملة في مفهوم التاريخ فإن هذا لا يحول دون بعض المآخذ عليهم، فهناك عيوب أساسية شابت مناهج البحث التاريخي في القرن الثامن عشر وأبرزها:

- أولاً: عدم إدراك المؤرخين لحقيقة التطور والتغير الإنساني بحيث خلت مؤلفاتهم تماماً من أي إحساس بهذا⁶⁶.

- **ثانياً:** حكموا على عصور الماضي بمعايير حاضريهم ومن ثم كان نقدهم العنيف للعصر الوسيط، وقد انتقلت حملتهم على رجال الدين إلى أن مست الدين نفسه إذ لم يكن في نظرهم عاملاً من عوامل تشكيل الحضارة، ولم يحاولوا فهم الماضي في ضوءه بل في ضوء قيمهم وأحكامهم⁶⁷.

- **ثالثاً:** رغم أن الدراسة البحثية قد استمرت إلى جانب التفسير والتحليل، فإن الرابطة بين جميع المعلومات البحثية وتحليلها كانت ضئيلة إلى حد بعيد، بمعنى أن مؤرخي تلك الفترة اهتموا بجمع الوثائق والأدلة، لكنهم نادراً ما كانوا يعكفون على تحليلها.

- **رابعاً:** لم يكن التاريخ حتى في القرن الثامن عشر مادة دراسية مستقلة في مدارس وجامعات أوروبا، ولم يكن يدرس مستقلاً سوى في قصور الأمراء ورجال الدولة باعتباره من أدوات التربية والتدريب السياسي⁶⁸.

- **خامساً:** قلّة تنبه مؤرخي القرن الثامن عشر إلى تطور الإنسان ومجتمعه، فإنسان عصرهم في نظرهم هو إنسان العصور القديمة، ومن هنا أساءوا الظن بتصرفات الناس والسخرية من أعمالهم⁶⁹، وهم بهذا أقرب إلى الأخلاقيين منهم إلى العلماء أو المؤرخين المحترفين، ولهذا فإنهم لم يصلوا بالتاريخ إلى مرتبة العلوم التي تدرس في الجامعات.

- **سادساً:** لم تتمكن نظرية التقدم التي سادت عقول مؤرخي القرن الثامن عشر من أن تزيح موجة التشاؤم التي رسخت في أعماق الإنسان العادي منذ العصر القديم يعود ذلك إلى أنها لم تتصور التقدم إلا علمياً مادياً في حين أغلقت الجوانب الإنسانية الأخرى والجوانب الروحية⁷⁰.

ومع ذلك كان التدوين التاريخي في عصر الاستنارة مدخلاً للتاريخ العلمي وكان فاتحة لثورة الدراسات التاريخية التي شهدها القرن التاسع عشر إذ تنوعت فروع التاريخ وأفاق المعرفة التاريخية كما اتسعت الدراسات التاريخية وتنوعت طرائق البحث التاريخي حتى سمي القرن التاسع عشر بعصر صناعة التاريخ.

قائمة الهوامش:

1. محمود محمد الحويري، منهج البحث في التاريخ، منشورات المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، 2001، ص 97.
2. فيلسوف إيطالي ولد سنة 1668، وعاش في نابولي، درس الآداب القديمة، وكان متأثراً بفرانسس بيكون، توفي سنة 1774.
3. رجائي ريان، مدخل لدراسة التاريخ، دار ابن رشد للنشر والتوزيع، عمان، 1986، ص 111.
4. حسين مؤنس، التاريخ والمؤرخون، مجلة عالم الفكر، المجلد 20، الكويت، 1974، ص 76.
5. للتفاصيل عن فيكو ونظريته في التعاقب الدوري للحضارات ينظر: أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، منشورات الجامعة الليبية، بنغازي، دت، ص ص 153-165.
6. هرنشو، علم التاريخ، ترجمة عبد الحميد عبادي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1937، ص 62.
7. ولد في بايس من أسرة ثرية درس القانون والأدب، سجن في الباستيل، وأقام ثلاث سنوات في إنجلترا درس خلالها الفلسفة الإنجليزية، أصبح من أكبر مؤرخي فرنسا ثم رحل لبروسيا، عاد لباريس ومات فيها.
8. 1718-1682 ملك السويد توج نفسه بيده، تحالف ضد بطرس الأول قيصر روسيا، قتل في النرويج في إحدى المعارك.

9. 1725-1672 مؤسس روسيا الحديثة زار بلداناً أوروبية عديدة تحالف مع الدنمارك وهولندا ضد شارل وهزمه في معركة بلطاوة.
10. حسين مؤنس، **التاريخ والمؤرخون**، ص 71.
11. 1715-1638 لقب (الملك الشمس) رفع الملكية الفرنسية إلى ذروة مجدها، امتاز عهده بالاصلاح الاقتصادي والاداري، انتهج سياسة خارجية تعتمد على تفوق فرنسا على سائر أوروبا لذا سمي عهده بعهد التفوق الفرنسي.
12. قاسم عبده قاسم، **تطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية**، مجلة عالم الفكر، المجلد 20، الكويت، 1974، ص 211.
13. محمد عواد حسين، **صناعة التاريخ**، مجلة عالم الفكر، الكويت، 1974، ص 130.
14. اسماعيل أحمد ياغي، **مصادر التاريخ الحديث ومناهج البحث فيه**، مكتبة العبيكان، الرياض، 1999، ص 168، قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 211.
15. أحمد محمود صبحي، **المرجع السابق**، ص 181.
16. **المرجع نفسه**
17. ألف فولتير كتاباً بهذا العنوان سنة 1765.
18. محمود الحويري، **المرجع السابق**، ص 99.
19. حسين مؤنس، **التاريخ والمؤرخون**، ص 71.
20. 1776-1711، فيلسوف ومؤرخ اقتصادي اسكتلندي عرف مذهبه بالشك، مؤلفه الرئيسي (رسالة في الطبيعة البشرية).
21. هاري بارنز، **تاريخ الكتابة التاريخية**، ج1، ترجمة محمد عبد الرحمن برج، القاهرة، 1982، ص 219.
22. محمود الحويري، **المرجع السابق**، ص 99.
23. هاري بانز، **تاريخ الكتابة التاريخية**، ج2، ترجمة محمد عبد الرحمن برج، القاهرة، 1982، ص 219.
24. 1755-1689، مارس المحاماة في باريس، انضم لأكاديمية بور لا عام 1716.
25. هاري بارنز، **تاريخ الكتابة التاريخية**، ج2، ترجمة محمد عبد الرحمن برج، القاهرة، 1982، ص 31.
26. رافت غنيمي الشبخ، **في فلسفة التاريخ**، القاهرة، 1996، ص 122.
27. استغرق كتابة أربعة عشر عاماً من 1734 – 1748، وكانت فكرة تأليفه تراوده منذ الصغر، نشره سنة 1750.
28. ارنتست كارسير، **مدخل إلى فلسفة الحضارة الإنسانية**، ترجمة إحسان عباس، بيروت، 1961، ص 340 – 341.
29. أحمد محمود صبحي، **المرجع السابق**، ص 86.
30. هاشم يحيى الملاح وآخرون، **دراسات في فلسفة التاريخ**، منشورات جامعة الموصل، 1988، ص 101.
31. احمد محمود صبحي، **المرجع السابق**، ص 86.
32. **المرجع نفسه**، 87.
33. محمود الحويري، **المرجع السابق**، ص 101.
34. احمد محمود صبحي، **المرجع السابق**، ص 87.
35. فونفين، **فلسفة الأنوار**، ترجمة هنري عبودي، بيروت، 1981، ص 54.
36. فيلسوف فرنسي ولد بجنيف، رافق ديفيد هيوم في رحلة إلى إنجلترا، ثم عاد لفرنسا بعدما اختلفت معه، ترك آثاراً في مجالات السياسة والفكر والأدب والتربية.
37. ويد جيرى، **التاريخ وكيف يفسرونه من كونفوشيوس الى توينبي**، ترجمة عبد العزيز جاويد، ج2، القاهرة، 1972، ص 35.
38. رافت الشبخ، **المرجع السابق**، ص 127 : محمود الحويري، المرجع السابق، ص 102.
39. هاشم يحيى الملاح وآخرون، **المرجع السابق**، ص 103.
40. 1790 – 1723 اسكتلندي الأصل من كبار المفكرين الاقتصاديين.
41. حسين مؤنس، **التاريخ والمؤرخون**، ص 75.
42. سنأتي على ذكره لاحقاً.
43. 1883 – 1818، ولد في تريفز، يعد كتابه (رأس المال) أهم كتبه على الإطلاق، يقع في ثلاث مجلدات، نشر سنة 1867.
44. حسين مؤنس، **التاريخ والمؤرخون**، ص 75.
45. مؤرخ انجليزي، تعلم باكسفورد ولوزان وروما.
46. إسماعيل ياغي، **المرجع السابق**، ص 184.
47. حسين مؤنس، **التاريخ والمؤرخون، دراسة في علم التاريخ ومدخل الى فقه التاريخ**، دار الرشد، القاهرة، 1984، ص 75.

48. هنري جونسون، تدريس التاريخ، ترجمة أبو الفتوح رضوان، القاهرة، دت، ص 17.
49. اسماعيل ياغي، المرجع السابق، ص 184.
50. حسين مؤنس، التاريخ والمؤرخون، ص 73 - 74.
51. هاري بارنز، تاريخ الكتابة التاريخية، ج 1، ص 223.
52. المرجع نفسه.
53. حسين مؤنس، التاريخ والمؤرخون، ص 74.
54. رياضي وفيلسوف ومؤرخ للعلوم ومصالح اجتماعي، كان صديقاً لفولتير، عضو الأكاديمية الفرنسية، أيد الثورة الفرنسية التي ظن أنها ستخلق صورة الكمال الإنساني لكنه عارض إعدام الملك لويس السادس عشر، وأصبح وزيراً للمالية، مات بعد اعتقاله بلبلة واحدة.
55. أحمد محمود صبحي، المرجع السابق، ص 186 : محمد شفيق غربال، الموسوعة العربية الميسرة، المجلد الثاني، بيروت، 1995، ص 1518.
56. أحمد محمود صبحي، المرجع السابق، ص 188.
57. 384 - 322 ق. م. فيلسوف يوناني تتلمذ على أفلاطون وعلم الإسكندر الأكبر، كان يحاضر ماشياً فسمي هو وأتباعه بالمشائين.
58. احمد محمود صبحي، المرجع السابق، ص 189.
59. محمد شفيق غربال، الموسوعة العربية الميسرة، المجلد الأول، بيروت، 1995، ص 117.
60. احمد محمود صبحي، المرجع السابق، ص 189 - 190.
61. فرانسيس بيكون 1561 - 1626، فيلسوف انجليزي وبعد رائد الفلسفة الانجليزية، يقوم مذهبه على الملاحظة والتجربة، أول من وضع منهج البحث العلمي في أوروبا.
62. 1564 - 1642 عالم فلكي إيطالي وضع أسس العلم التجريبي الحديث.
63. رينيه ديكارت 1596 - 1650 فيلسوف فرنسي طبق المنهج الرياضي على الفلسفة، قامت فلسفته على الشك المنهجي، بحث في قواعد التفكير والمنهج العلمي، اشتهر بعبارته " أنا أفكر إذا فأنا موجود "، وغدت قواعد في البحث عن الحقيقة أساساً للتربية الحديثة.
64. طه باقر وعبد العزيز حميد، طرق البحث العلمي في التاريخ والآثار، بغداد، 1980، ص 44.
65. حسين مؤنس، التاريخ والمؤرخون دراسة في علم التاريخ، ص 76 - 77.
66. قاسم عبده قاسم، تطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية، ص 211.
67. احمد محمود صبحي، المرجع السابق، ص 191.
68. قاسم عبده قاسم، تطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية، ص 211.
69. حسين مؤنس، التاريخ والمؤرخون دراسة في علم التاريخ، ص 79.
70. احمد محمود صبحي، المرجع السابق، ص 195.

مصادر ومراجع البحث:

1. أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، منشورات الجامعة الليبية، بنغازي، دت.
2. أرنتس كارسيرر، مدخل إلى فلسفة الحضارة الإنسانية، ترجمة إحسان عباس، بيروت، 1961.
3. اسماعيل أحمد ياغي، مصادر التاريخ الحديث ومناهج البحث فيه، مكتبة العبيكان، الرياض، 1999.
4. حسين مؤنس، التاريخ والمؤرخون، مجلة عالم الفكر، المجلد 20، الكويت، 1974.
5. حسين مؤنس، التاريخ والمؤرخون دراسة في علم التاريخ ومدخل إلى فقه التاريخ، دار الرشاد، القاهرة، 1984.
6. رأفت غنيمي الشيخ، في فلسفة التاريخ، القاهرة، 1996.
7. رجائي ريان، مدخل لدراسة التاريخ، دار ابن رشد للنشر والتوزيع، عمان، 1986.

8. طه باقر وعبد العزيز حميد، طرق البحث العلمي في التاريخ والآثار، بغداد، 1980.
9. فولغين، فلسفة الأنوار، ترجمة هنريس عبودي، بيروت، 1981.
10. قاسم عبده قاسم، تطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية، مجلة عالم الفكر، المجلد 20، الكويت، 1974.
11. محمد شفيق غربال، الموسوعة العربية الميسرة، المجلد الأول، بيروت، 1995.
12. محمد شفيق غربال، الموسوعة العربية الميسرة، المجلد الثاني، بيروت، 1995.
13. محمد عواد حسين، صناعة التاريخ، مجلة عالم الفكر، الكويت، 1974.
14. محمود محمد الحويري، منهج البحث في التاريخ، منشورات المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، 2001.
15. هاري بارنز، تاريخ الكتابة التاريخية، ج1، ترجمة محمد عبد الرحمن برج، القاهرة، 1982.
16. هاري بارنز، تاريخ الكتابة التاريخية، ج2، ترجمة محمد عبد الرحمن برج، القاهرة، 1982.
17. هاشم يحيى الملاح وآخرون، دراسات في فلسفة التاريخ، منشورات جامعة الموصل، 1988.
18. هرثشو، علم التاريخ، ترجمة عبد الحميد عبادي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1937.
19. هنري جونسون، تدريس التاريخ، ترجمة أبو الفتوح رضوان، القاهرة، د.ت.
20. ويد جيرى، التاريخ وكيف يفسرونه من كونفوشيوس إلى تويني، ترجمة عبد العزيز جاويد، ج2، القاهرة، 1972.